

زيد الشهيد في تراجيديا السماوة

(2)

هاتف بشبوش

وصلنا الى حسان وطرزان الخزاعل حيث كان (حسان) , مقلداً طرزان , ومن منا لايعرف فلم طرزان وهو يرافق القردة الشهيرة شينا , صائلاً جائلاً بين الأدغال , فكان حسان في بستانهم يقوم بتقليد تلك الخفة النزقة والمثيرة لطرزان وصوته المتميز في عمق الغابة . طرزان تلك الرواية التي كتبها الروائي الأمريكي أدغار رايس قد بيع منها 35 مليون نسخة في الأشهر الأولى , وتحولت الى فيلم (طرزان) سيكون هو الأشهر في ذلك الزمان وحتى اليوم بقي معلقاً على حبال الذاكرة الصورية , على الرغم من أنّ الكاتب أدغار رايس كان كاتباً تافهاً . كان حسان يحب (رسمية) وفي كل مرة يشاهدها وهي تقوم بأعمال الفلاحة يقوم بتقليد حركات وأصوات طرزان أمامها , حالماً أنه سيحظى بحبها لو رآته بمستوى هذه البطولة الطرزانية, وظلّ ردحاً من الزمن على هكذا منوالٍ ساحر , حتى لقب بطرزان الخزاعل في ذلك الزمن الخرافي . الطفولة وما تمليه علينا من الخيال العجيب , والأفعال التي لا تتناسب مع العقل , جعلت من صديق طفولتي (رسول) , وهو لا زال حي يرزق , أن يقفد أحد الشخصيات السينمائية آنذاك . كان في يوم ما , صعد الى شرفة بيت أهله , ولبس عباءة أمه , وأراد من ذلك أن يقفد السوبرمان , الذي كنا نراه في أفلام ذلك الزمن الممتع , وكيف كان السوبرمان يطير محلقة في السماء , ذلك الطيران الذي لا يشبه طيران الحمام , وقف رسول منتصباً فوق الشرفة وأطلق لنفسه العنان برمي جسده في الهواء كما سوبرمان , بضع ثواني وإذا به مرتطماً في الأرض , مع صرخات الألم

وتجمع الناس وأهله وذويه مستغربين عما فعله رسول , وحتى اليوم هو معوقاً أعرجاً وأحداً من فعلته هذه
(رسول) لم يتصور أنّ حلمه هذا سيجعله معوقاً ماتبقى من حياته.

تدور بنا البانوراما الى عبد الستار الأمامي صاحب السينما في السماوة , وهو يشتري فيلم (يسقط الاستعمار)
, حيث أنّ الكثير من أصدقائه نصحوه بعدم شراء هذا الفلم لأنه سيجلب له المتاعب مع السلطات , لكنّ روحه
الوطنية أصرت على شرائه . الفلم العربي الذي كان بمثابة صرخة وطنية عالية خفاقة من قبل الذين أقاموا
على إخراجهم وتمثيله وإنتاجه , فألهب نفوس الجماهير العربية في عموم أرجاء الوطن العربي , وفي العراق
وفي البصرة , قام عمالها بالأضراب تنديداً بالاستعمار . كان هناك تلاحماً عربياً واضحاً نوعاً ما , أفضل
بكثير مما نراه اليوم من شرذمة لهذه الأمة التي وصمت بعارها وجبنها في بيع فلسطين حتى اليوم, ومن ثم
جاءنا إرهابها ودواعشها وفتنتها الطائفية التي ستحرق الحرث والنسل , لنر ماقلته الرواية عن الفلم.....

(في اليوم التالي كان حامل الدعاية , يخترق السوق يعلن عرض فيلم ..يسقط الاستعمار.. لتلك الليلة , العيون
طلعت حسين صدقي وشادية , العيون تحاورت وتسانلت , أصدقاؤنا هذا فيلم يسقط الاستعمار ؟ أحقاً سنشاهد
الفيلم الذي فجر التظاهرات وأربك الحكومة في بغداد).

تعود الكاميرا بنا الى الحب الذي لم يُجسد قبلة واحدة بين شمran ويوسف , حب خائفٌ على الدوام من التقاليد
الصارمة , حب في الخيال فقط , حبٌ تأتي جميع لواجه من بين طيات الوسادة الخالية , فنرى شمran تحدث
نفسها , لو أنّ المجتمع يسمح في أنّ يذهبوا هي ويوسف سوية الى السينما , كلها إرهابات نتجت من
الأمراض التي تنخر في جسد المجتمع المريض الذي لا يزال حتى اليوم لم يخطو خطوة جريئة في مجال

الحريات العامة واختلاط الجنسين , بل بالعكس نحن نتراجع كثيراً عن أيام زمان الربيعية والدافئة التي حملتنا على أكف الراح , ولو بالقدر النسبي الملحوظ . حتى اليوم هناك الكبت الذي خلف العديد من الأمراض بين صفوف الفتية والفتيات والعنوسة التي وصلت الى أرقام قياسية . ولو بقيت شمران حتى اليوم في العراق لشهدت حالة إضطهادٍ أشد , لوجدت نفسها واحدة من بين المئات من النساء المسيحيات والأيزيديات السبايا من قبل داعش والمتخلفين وما يجودون به من أفكار أكل الزمن عليها وشرب . قبل يومين من كتابة المقال وأنا اتمشى في حديقة عامة في الدنمارك وإذا بفتى وفتاة في عمر العشرين , شقرواين وذوي أجسادٍ براقية ناعمةٍ عارية تماماً وهم في حالة مضاجعةٍ, متناسين عما يدور حولهم , غير مكترئين بما يقوله الآخرون , أين نحن من هؤلاء , بالرغم من أنّ هذه الحالة نادرًا ماتحدث , كما وأنّ الشرطة نصحتهم أن يكفوا عن ممارسة مثل هذا التصرف العلني خوفاً على الأطفال الماريين من أن يشاهدوا هكذا منظرًا غير مألوف لديهم .

بينما شمران لا يحق لها سوى التفكير بأطلالة يوسف , وهو مارقٌ في الزقاق , ورغم ذلك نرى أنّ الريح تأتي بما لاتشتهي السفن , حيث يُعتقل يوسف بتهمة الانتماء الى الحركة الشيوعية , ويذوق الأمرين هناك , فتتعلق باب المستقبل وآفاق السعادة المنشودة والى الأبد , كما نرى في الثيمة أدناه من الرواية.....

(سحبوه ببجامة النوم , الفراش مبعثر ودافئ , أنفاسه تشيع في فضاء الغرفة حرّى مضمخة بالغرابة والغموض, تتصادم مع سؤال الحيرة (ليش) والدهشة (شكو) , الدهشة تركها على وجوه طلبية القسم الداخلي وسؤالهم عن سبب جره بهذا المشهد المهين , لم يكن يوسف شيوعيا كما إتهموه وقادوه , بل كان بنظر زملاءه ليبرالياقرأ الكثير وتنقل بين مملكة المعرفة).

وفي السجن يُتهم يوسف بقتل أبيه, ويرى شتى أنواع التعذيب ظلماً وباطلاً , وهو ينكر ذلك , وشاعت الأخبار في مقهى عبد الله حطوط وبقية الكازينوهات بهذا الخبر الصاعقة على قلوبهم , الكل لا يصدق , والكل يعرف يوسف ودمائة أخلاقه , وحبه لأبيه , ولكنهم سجنوه لغاية في نفس الحكومة , سجنوه لكي يلصقوا التهمة به , وبذلك يتخلص المجرمون الحقيقيون من المساءلة (كل من شرّاد هديب, وشتيوي الياور , والمفوض رشاش جاسب) .

يخرج يوسف من المعتقل , تمضي به الأيام خائر القوى ويبقى مذهولاً مشدوها يدور في أزقة السماوة على غير ماهو كان عليه من حسن الهندام والأناقة التي تلفت الأنظار, لقد أخذ السجن منه راحة باله وعقله , لقد سلب منه يوسف الحقيقي الذي خرج من جبة ربيع الهادي رغماً عنه . وبتقادم الأيام أصبحت قصة مقتل أبيه ذكرى منسية , وكان حينما يمر من أمام شمران في الشارع , أو على صدفةٍ وهي تفتح باب منزلها , فإنه يبدو عبارة عن كتلةٍ لحميةٍ تركت مشاعرهما وأحاسيسها في الأقبية والظلام الموحش , كما في الثيمة أدناه....

ذهبتُ تلك الملابس الزاهية المترفة القادمة من تحت حرارة المكواة وحلّت محلها القمصان المهملة المدعوكة والبناطيل المجعدة والأحذية المتربة).

شمران تطالعه بحسرة وألم ودمعة تكاد تسقط من العينين , على تلك الفتوة الجميلة التي حطمتها أحقاد المجرمون الجلاوزة.

الشوارع تتحول الى هياكل عظمية ودماء مرشوشة على أرضفتها بنظر يوسف , الأزقة كلها عبارة عن الأم
وصرخات المضطهدين في دهاليز المجرمين , فيترأى له حكيم يستنطق التاريخ فيسأله كيف ترانا أيها الحكيم
فيجيب.....

(سيضيق بكم الحال , ويهرب منكم الهواء, تنتشردمون وتتشظون , تتنازعون وتتقاتلون , تهيمون كالضواري
العطشى بحثا عن جرعة ماء فلاتجدون,وتسعون الى ظل شجرة تتفياؤن به فلاترون ... يأمه ضحكت من
جهلها الأهم).

ورغم كل هذا الدمار , تنتقل الكاميرا الى حالة الطرب وغناء سعدي الحلي , وكأنّ البشر يريد أن يخلق حالة
من التوازن في الأحداث كي تزيح عن نفسه بعض ما أعتراه من غمٍ وهم . بينما اليوم في ظل نظام الحكم
الأصولي الثيوقراطي لانجد مطربا يستطيع الغناء ويقدم لنا الجلسات التي تبهج النفس وسط عالم اللطم والبكاء
والدواعش , أنه عالم (وماخلقتنا الجن والأنس إلا ليعبدون).

أما ناصر الجبلاوي يظل يبحث عن صورة ليوسف الأنيق ذو التسريحة الجميلة والعقل المنفتح , والأبتسامة
الدائمة , أنه اليوم يوسف المبعثر , يوسف الذي تشظى الى الآف الصور في مرآة الحياة , يتأوه ناصر الجبلاوي
مصور الفلم وتأخذه حسرات الشفقة على يوسف , فيقول.....

(أعطوبك , أنهم يخشون إرتقاء النيرين لتسلم السلطة , يخافون إستحالة المثقف سلطة نقدية تطيح بهيبتهم ,
توقف سرقاتهم وتلاحق جرائمهم في إغتيال الأنقياء ووأد مايستشفونه بيزغ نقيا نظيفا مبهراً , لن يكون لهذا
الشعب مستقبل , والوطن سيبقى مرتبكا عليلا, متعثراً اه).

في أغلب الروايات دائما نشاهد صراع عناصر الخير مع عناصر الشر , ومهما إستمر الشر في طغيانه , لكننا نرى في النهاية إنتصار الخير وهذا هو منطق الحياة , لذلك جعل زيد روايته تعبر عن القصاص العادل من المجرمين في الحياة وأمام مرآى الضحايا , لذلك القصاص المؤجل الذي يوعدنا بخرافات مابعد الموت , القصاص الذي صنعه لنا الروائي الشهير ديستوفسكي , القصاص الذي نراه على الأرض في أغلب رواياته .
لنقرأ عن ذلك وحسب ماجاء في الرواية لنهاية الأشرار التي تسعدنا حقاً

نهاية عناصر الشر في الرواية :

*** المفوض رشاش جاسب**

يتعذب كثيرا على فعل جرائمه وما فعله بالناس (منها مشاركته في قتل سلطان شاهر) مع شتيوي الياور وشراد هديب . يصيبه المرض العضال , ولم تعد له القدرة على الحركة والنهوض , يئس الجميع منه , يتشمت به الآخرون ,(صار أغلب المارة منه يبصرونه يجلس على كرسي ذي مسندين) , (يؤكد في داخله , أن الحياة جميلة وويل لمن يغتر فيها أو يختط طريق إيذاء الناس) , مات (تاركا هيكل عظميا , وروحا تتعذب صعدت الى السماء) . حقا أنني أقرأ سردا لزيد الشهيد يشبه ذلك السرد الذي نقرأه في الروايات العالمية الشهيرة .

* شتيوي الياور

المجرم الذي ساهم في قتل (سلطان شاهر مع شرّاد هديب) مات بعد إن سقط من على الجسر الخشبي وهو عائد من البار سكرانا , سقط الى النهر فيكون بذلك قد لوث ماء الفرات العذب بعفونته , مات مخلفاً وراءه تأريخاً أسوداً مليئاً بالجرائم . مات غرقا وسكراً, حيث عثر عليه صياد سمك في منطقة الدحيل معلقا في شباك صيده وأعلن عن (خاتمة شتيوي الياور غرقا) بعد إن كان الناس متحيرين في إختفائه.

* شرّاد هديب

شرّاد هديب , منبت الشر والجريمة و الناس ترتاب فيه بكونه مجرم قاتل , عدة مرات يسجن ولعدم كفاية الأدلة يطلق سراحه . في لحظة إحتضاره يعترف وهو على فراش الموت لشخص من نزلاء الفندق الذي يسكنه في أيامه الأخيرة فيقول.....

(إسمع أنا شراد هديب .. أنا مصاب بسرطان الدم ,وهذا المرض اللعين عقاب لي عاقبني الله به لعنة على ما ارتكبت , جئت الى هنا لأعترف بأني قتلتُ سلطان شاهر المسكين , هذه اليد إنهالت بالمكوار على رأسه ففجرتة , وساعدني شتيوي الياور الذي إنهال عليه بقضيب حديدي , حتى تأكدنا من لفظ آخر أنفاسه) .(ثم بعدها بفترة قتلت بائعة القيمر لأنها شاهدتنا ونحن نقتل سلطان شاهر) , قتلناه من أجل المال الذي لم نحصل عليه , لأننا عرفنا بعد فترة وجيزة أنه كان يخبأ ماله عند جار له , جاء اليهم بعد موت والدهم وأعطاهم الأمانة فلسا فلسا . قال له نزيل الفندق فلماذا أتهمت الحكومة يوسف ابنه بذلك , فقال (حسبوه يحمل فكراً هداماً لا اعرفه , فكر شيوعي , أو الحادي من الأفكار الخطرة عليهم) . بموت شرّاد هديب , صار الثلاثة, المفوض

رشاش جاسب , شتيوي الياور , شرّاد هديب, لدى ناصر الجبلّاوي (حين يوصد الباب يختفون في عتمة حالكة , كأنهم يغرقون في بحيرة دماء قانية وقد بدت وجوههم شاحبة و عيونهم تطفح الأسى).

* جواد البوري

أنه دجال مكر , كان ينفخ في الخراف تحت جلدها كي يجعلها سمينة ثم يبيعهها وحالما يصل المشتري الى البيت ترجع الخراف ضعيفة هزيلة. صُعق بالكهرباء عند دخوله الحمام فمات عقابا لأفعاله الخسيسة والخبيثة التي أغضبت الكثيرين.

نهاية عناصر الخير في الرواية.....

* مجيد المجنون

(مات مجيد تاركا حياة لاتستحق الأنجرار الى شهواتها واغراءاتها وغواياتها) تاركا الأدباء يكتبون عن (رحلة جنونية يغيب فيها العقل ويتعطل الوعي) , تاركا (صور الفتى الحالم , يمسك مسدسات عظمية ويطلق الرصاص البرئ على أشباح وهميين كانوا يفكرون في اغتيال رؤاه الطيفية الغارقة في لون ثلجي يمطر نقاء لا أنتهاء له).

* طرزان الخزاعل

ظلّ معتادا على ذكرى رسمية ووجهها الشارد صوب الرحيل , ظلّ يكرغ الخمر , لعلّه ينسيه ذكريات رجل ولهان , خسر ردحا من الزمن بين النخيل والأشجار بصفته بطلاً خرافياً . لكنّ الصوت القادم من الأنام وصداه يقولان له , أنكّ مازلت طرزان الخزاعل. (غاب اسم حسان خلف غلالة اسم طرزان الشهير).

* بنت المؤمن

أخذتها الشيخوخة والكهولة وتركت أحلام المساواة بين المرأة والرجل

* لفتة جواد

مات بحادث اصطدام سيارة

* نجم المصارع

(ترك خيال ستيف ريفز وعاد جسدا ناحلا مصفرا (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) مات واستطاع ولده أن يحتفظ بصورة له وهو يقلد حركة يفضلها ستيف ريفز , ونشرها في صفحة الأموات عبر شبكة التواصل الاجتماعي (الفييس بوك) بعد عشرين عام من وفاته).

* شمران بنت لازار المسيحي

الرواية لم تذكر عنها شئ , لكنني أعرف جيدا بأنها في أمريكا الآن هاربة من جحيم العراق والبعث.

* ناصر الجبلوي

يبقى مع التاريخ حاملاً كاميرته كي يكمل مسلسل العنف الدموي في العراق , العنف الذي لم يأذن الرب بموته حتى الآن . يبقى ناصر الجبلوي , على أمل أن يجد له مصوراً بديلاً , كي يضع صورته في معرضه المزجج , والأناصير حينما تمرق , ربما تقول كان هنا دمٌ ينبض , لكنه أضحى رمادا بعد طول سنين.

* التاريخ .. مخرج الفلم حي لا يموت.

* يوسف سلطان شاهر (بطل الفلم)

ظلّ شارد الذهن , مندهلاً صامتاً , يرى الناس أجدائاً تروح وتغدو , تأكل التراب وتنام على التراب , تشربُ الصاد وتنزف الصديد . ظل مطوقاً بجملة ذكريات بعضها يغرق في الربيع والأخضرار وبعضها يفيضُ بالخريف ونفوقِ البشر . شمران : كانت قلاند من ذهبٍ وضيء في وحشة ليله المميت . علي الوردي : صفحة أخرى من كتاب رائع يتمنى أن لا ينتهي كي يظل في نشوة القراءة . رأي ابن خلدون في العرب : هو الجهل والدمار , وأنثى عاقرة . السجون : أقبية لا يسكنها سوى الموتى وجلادون بلاشرف . وماتبقى بين الناس من حقدٍ وكراهية وسباحة خلف التماسيح : هو الموت والرماد.

يظل يوسف هائماً في الشوارع طولا وعرضا , منعزلاً غير مكترث بما يحصل , نسي الحلم الذي كان يراوده , وفي يوم كان يلقي التحية على شخص من معارفه , ويمر من أمام جامع جديد فيتمتم (ما أكثر الجوامع ما أقل المؤمنين).

ينتهي الفلم (الرواية) وكأني خارجُ من صالة سينما الشعب في السماوة أيام زمان وبي رغبةً على أن

أخبر الأصدقاء القادمين في الدور الثاني للفيلم , بروعته , ورغبة أخرى على أن أراه ثانيةً.

عراق / دنمارك